ECRANS

مخرّب الحكايات اللبنانية!

بورتريه

غسان سلهب نظرته مستهجنة وفاضحة الى بيئته. بقدر ما يبدو تمرده على أدوات التعبير السينمائية تمرد طفل يلهو بألعاب تعوّد تفكيكها ثم تركيبها، نجد في هذا المنحى الثوري واقعية كئيبة تستلذ كآبتها، وهذه سمة من سمات النضج والحكمة. منذ "أشباح بيروت" وهو يحرك الخنجر في الجرح، غير آبه بما يقال من حوله، مرة عبر تسكعه الليلي في مدينة ظالمة ومظلومة ضاقت فيها سبل العيش، ومرة عبر فضح "الاكذوبة الجماعية" التي رضخ لها اللبنانيون شعباً وسلطة. ففي حين ان كل شيء من حولنا يسهر دائماً على تصحيح الصورة، تأخذنا سينماه دائماً وأبداً عبر طرق وعرة الى قلب بلاد تنزف دماً وقهراً، وحده سلهب قادر فيها على قول أشياء محض سينمائية على هذا النحو اللمّاح والاستعاري. شخصياته الشبحية تعيش في قاع هذه المدينة، لكن ليس نتيجة خيار مسبق بل لانعدام الخيارات، ويمكن القول ان انتظارها على الحافة متأتٍّ من تأجيل دائم للرحيل.

يحلو لسلهب التعريف عن نفسه بكلمة "اسفنجة". وظيفته: امتصاص الواقع. لكن هذا لا يكفي لقول مَن هو. كونه يلجأ دائماً الى خيارات سردية غير مظنونة أو متوقعة، هذا ايضاً لا يسهل عملية تصنيفه. لا ادعاء عند الرجل كما هي الحال عند آخرين، لأن هذه رؤيته للسينما التي اكتشف معظم ضربات جنونها الكلاسيكية (غودار وغي دوبور وغيرهما) في قاعات باريس المظلمة. الأكيد انه لم يختر ما اختاره من لغة وأساليب كي يلهو بها لهواً "سنوبياً"، انما لحقيقة اننا في بيروت، "يصعب علينا النظر الى محيطنا على نحو يجعل الاستقامة احدى سماته". باختصار، انه صاحب سينما تبعث البهجة في قلب من يؤمن ان المَشاهد شريك اساسي في صناعة الفيلم. اما من لا يؤمن بذلك، ف...

غسان سلهب لا يرسم بورتريه غسان سلهب في أفلامه. الذين يخيّل لهم انهم يعرفونه، يجدون ان هذا الخطاب بينه وبين افلامه سببه القاؤه نظرة جد شخصية على العالم الى درجة اختلاط الدال بالمدلول. أما فكرته الفيتيشية السرمدية فتتجسد في مقولة فلوبير المعبّرة عن الحالة التي يهدف للوصول اليها: "يكفي ان تنظر مطوّلاً في شيء، كي يصير هذا الشيء مثيراً". في سياق مشابه لهذا الطرح، قال لي مرة: "إذا قبلت بفكرة ان الحياة مأسوية، فقط في ذلك الحين تستطيع رؤية انبعاث النور من داخل الظلام". هذه "الديانة" لا يمكن الصابر الا ان يمجدها، وخصوصاً ان معتنقها لا يحكم على الواقع الذي يعتاش منه، بل يكتفي برمي نظرة مستهجنة عليه (التكرار هنا للاصرار).

يشهر سلهب انتسابه الى "مواطني العالم"، وهو من مواليد السنغال، لكن بعد فترة انتقال بين فرنسا ولبنان، استقر في بيروت التي استلهمها في ثلاثة أفلام متتالية محورها العاصمة اللبنانية، تخللتها بضعة أعمال تجريبية فرضتها الظروف ومقارعة الحجة بالحجة والذوق بالذوق. سؤال الهوية والانتماء ألقى بظلاله على عمله وتفكيره واحتكاكه وعلاقته بالحالة اللبنانية. على غرار الكثير من المغتربين، شرب سلهب من بئر بلاد غريبة، فأتى الى السينما حاملاً تحت ابطه حقيبة سينمائية امتلأت نتيجة تأقلمه مع ثقافات متعددة. من هذه الثقافات ثقافته الافريقية، وعلاقته بعامل الوقت وفق المفهوم الافريقي للكلمة، وهو مفهوم مخالف للمفهوم الاوروبي الذي يخال له انه قادر على التحكم بالوقت، "في حين ان الأمور في لبنان وفي افريقيا تتشابك بعضها ببعض".

يزعم سلهب أنه يصوّر بأذنيه بقدر ما يصوّر بعينيه (الاستماع الى الشريط الصوتي لفيلمه الجديد "1958"). وعلى رغم انه يمكن تصنيفه مخرجاً ذهنياً او عضوياً، فهو يجد نفسه غريزياً في المقام الأول. يستمع كثيراً الى الحواس. في ودّه دوماً ان يضع المشاهد في "تجربة جسمانية"، ليزعزع علاقته المريحة بالسينما. كيف نروي قصة؟ هذا هو السؤال الأبرز الموجّه الى السينمائيين في عصرنا الحديث، لكن هذا الرفض في الاقتراب من ضفاف جديدة يشكل ظاهرة عالمية لا تنحصر بالبلاد العربية فحسب. سلهب يرى السينما من مكان آخر.

غسان سلهب.

في "1958" الأوتوبيوغرافي (عَرض مساء الثلثاء في افتتاح "شاشات الواقع")، مرة أخرى يمضي الفتى المخرّب للسينما اللبنانية في تخريب الحكاية بدلاً من بنائها، رابطاً بجسور هوائية جديده الساحر، مرفقاً إياه بتاريخ طويل من السينما الراديكالية المخربة. طَموح لكنه متواضع في طموحه، لإنجاز أقوى ما يمكن انجازه. "على الفيلم ان يحمل قدراً من الارتجاج ولا ارغب في عمل سطحي ومتعادل". هذا ما كرره مراراً. في "1958" يتحقق حلمه.

لا يعمل سلهب وفقاً لمنطق الفصل بين الواقع والمتخيل. وما النفع إذا كانت كل حقيقة تقفز الى الشاشة تصبح "كذبة الحقيقة". قد يصل الى حافة كلٍّ منهما من دون تصميم مسبق. هو مهتم بالاطار ومحتواه وبالحوار الذي ينشأ بين صورة وأخرى تلحق بها (نظرية ليف كوليشوف). في هذه النقطة تحديداً، تكمن قوة سينماه. يتفاوض مع الاسلوب، كمن يتفاوض مع الشيطان، كي لا يصبح ضحيته. لا يريد قالباً للسينما التي يصنعها بقدر ما يريد لها روحاً. لا يريد ان يكون مهندس اشكال. في النهاية نحن قبالة سينما مسرورة في تطرفها، وتبحث عن ذاتها الاخرى، وقد لا تكون صدور الناس رحبة الى هذا الحدّ لاستقبالها، لكن لنمنح الحالم الحق في أن يحلم من خلال السماح له بإنجاز افلام لا تكون عبارة عن تعليقات على الحياة الاجتماعية اللبنانية.

هـ. ح.